حلم أبتر

متّسخة ملابسهم، ملطّخة وجوههم بالتراب، يتقافزون في تحدٍّ ومشاغبة للأيام الصفراء المنطبعة على ملامحهم، يدفع كل منهم الآخر في براءة مشوهة؛ ليحصل على مكانه المميز فوق المركبة القابعة في سكون في الطريق؛ ليتخيّل كل منهم أنه مالكها أو قائدها، الذي يمشي متبخترًا بين الناس، تناوشهم أوهام رجولة مغلوطة الفكرة والتوقيت، يضحكون في نشوة انتصارهم المزيف، ضحكة تزجي الوهم بداخلهم لبضع دقائق، ثم لا يلبثون أن يستيقظوا على حلمهم المبتور، عندما ينادي عليهم صاحب العمل ويعطي كل منهم حصته من علب المناديل التي يدسها كل منهم رغما عنها – هي الأخرى – في أيدي المارين وركاب الحافلات، لينطفئ شعاع البراءة الأخير في أعينهم، ويحل محلّه هرم الأيام ومرارتها في جدية مقززة.

تتناوب نظراتهم إلى المارة في غضب تارة وفي حقد تارة أخري، مناقضة لكل قوانين الطفولة والبراءة، يصبو كل منهم لأن يكون مالكا لمركبة أو سيارة فارهة كتلك القابعة في صمت؛ ليقودها، ويثير بها غيظ وحقد الآخرين، مؤكّدا لذاته، أنه لا يقلّ عن الذين ملكوها يوما ما، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ فالسبل مختلفة والأبواب السود مفتوحة

على مصارعها، لا يحجمها تربية قويمة، ولا تردعها رحمة، لأنّ الشارع لا يربي ولا يرحم.

الشارع حلبة صراع تكرس لمبدأ البقاء للأقوى وللأدنى أخلاقًا وللأكثر شرًّا، هذا هو قانون الشارع.

نظرت إليهم، وأنا أفكر، كيف يمرّ بهم الناس كلّ يوم ولا يرون ما وراء هذه العيون الزجاجية، التي فقدت بريقها وصدقها منذ زمن، ولا أدري أي زمن؟!

قطع أفكاري صوت أحد الصبية، وهو يرمي إحدى عبوات المناديل في حجري، ويلتصق بزجاج الميكروباص بيديه اللزجة المتسخة وهو يقول:

«بالله عليك ما ترديها يا مدام عايز أفطر».